

الخاتمة

فى نهاية الدراسة ، يمكن التأكيد على عدد من النقاط الأساسية وذلك على النحو التالى :

١ - مع كتابة السطور الأخيرة من هذه الدراسة يأتى تصريح رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولمرت الذى اعترف فيه ضمنيا بامتلاك إسرائيل أسلحة نووية وذلك فى مقابلة له مع محطة تليفزيونية ألمانية ، حيث قال «أن إسرائيل لا تهدد أى بلد بأى شىء ولم تفعل ذلك قط وأقصى ما حاولنا الحصول عليه لأنفسنا هو أن نكون قادرين على العيش دون إرهاب لكننا لم نهدد أى شعب بالإبادة» .

وأضاف «أما إيران فهى تهدد صراحة وبوضوح وعلنا بمحو إسرائيل من الخريطة فهل يمكنكم إن تقولوا أن الأمرين متساويان عندما يتطلعون لامتلاك أسلحة نووية مثل أمريكا وفرنسا وإسرائيل وروسيا» .

وإذا كان بعض الإسرائيليين قد اعتبر أن تصريح أولمرت هو زلة لسان وأنه يشير إلى انعدام الحذر وتشير الشكوك حول صلاحية هذا الرجل لهذا المنصب ؛ لأنه ألحق ضررا بسياسة الغموض النووى الإسرائيلى ، فإن البعض الآخر رأها تمثل تغييرا فى سياسة توخى الغموض التى تتبعها إسرائيل بخصوص المسألة النووية ، وفى هذا الإطار اعتبرت حركة حماس هذه التصريحات بأنها تلويح بالقوة الإسرائيلىة فى مواجهة الدول العربية والإسلامية وخاصة إيران التى تسعى إلى تطوير برنامجها النووى .

وجدير بالذكر أن هذا التصريح قد جاء بعد أسبوع واحد من إعلان وزير الدفاع الأمريكى المعين روبرت جيتس خلال جلسة استماع فى مجلس الشيوخ أن إيران تسعى إلى الحصول على قدرات نووية ؛ لأن إسرائيل تمتلك سلاحاً نووياً .

إذن أياً كان تفسير هذا التصريح لأولمرت باعتباره زلة لسان أو عدولا عن سياسة الغموض النووى ، فإن ما يثبتته هذا التصريح بما لا يدع مجالا للشك هو واقع امتلاك إسرائيل للأسلحة النووية والسؤال الذى يطرح نفسه ما هو موقف المجتمع الدولى إزاء هذه الحقيقة؟ وهل ستستمر سياسة المعايير المزدوجة فى التعامل الغربى مع قضية منع الانتشار النووى فى المنطقة؟ .

وما هو موقف العرب من هذه «الحقيقة» التى باتت واضحة بما لا يدع أى مجال لتجاهلها أو العمل على أساس أنه «احتمال» . لقد وضع اعتراف أولمرت العالم العربى أمام «واقع» لا

بد أن توضع إستراتيجية أخرى للتعامل معه بعد أن ظل يتعامل مع الموضوع مثل إسرائيل بنوع من اللاشفافية .

وهكذا فإن استمرار وجود إسرائيل خارج نظام منع الانتشار النووي لم يعد أمراً مقبولاً، خاصة في ظل الحملة الدولية بزعمامة الولايات المتحدة الأمريكية ضد إيران، والتي تأتي بعد الغزو الأمريكي للعراق بزعم امتلاكه لأسلحة دمار شامل، والتي انتقلت معها عملية منع الانتشار إلى مستوى جديد يقوم على استخدام القوة العسكرية لتحقيق هذا الهدف .

٢- إن سياسات منع الانتشار الأفقى والتي التزمت بها الدول الغربية المالكة للسلاح النووى وفي مقدمتها الولايات المتحدة لم تفلح فى تحقيق هذا الهدف على نحو كامل فامتلاك الهند وباكستان وإسرائيل ومؤخراً كوريا الشمالية لهذا السلاح إنما يؤكد عدم فعالية هذه السياسات والأطر والمؤسسات والقواعد القانونية التى وضعت لهذا الهدف، ويمكن القول أن الحالة الوحيدة التى تم فيها نزع السلام النووى كانت هى الحالة العراقية، والتى مثلت - كما سبقت الإشارة - نقلة نوعية فى سياسة منع الانتشار، ومن ثم فإذا لم يتم تفعيل هذه السياسات والأطر، وإذا لم يتم انتهاج معايير واحدة فى مواجهة هذا الخطر، فإن عملية الانتشار النووى ستستمر وستهدد العالم عامة ومنطقة الشرق الأوسط خاصة بأخطار غير محدودة .

٣- إن القول بكون امتلاك إسرائيل للسلاح النووى لا يشكل أى خطورة لأنها دولة ديمقراطية، هو قول لا يمكن أن يصمد أمام حقيقة لجوء الولايات المتحدة وهى الدولة الديمقراطية الأولى فى العالم لاستخدامه ضد اليابان فى الحرب العالمية الثانية، دون أن تعبأ بالחסائر فى الأرواح والأموال والبيئة حينما رأت - من منظورها - أن استخدامه يحقق مصلحة قومية لأمرىكا . وفى ضوء ذلك وفى ضوء ما رصدته الدراسة من حالات تشكل وضع الملاذ الأخير الذى قد يدفع الإسرائيليين إلى قرار استخدام القنبلة النووية، فإنه لم يعد مقبولاً التسليم أو الارتكان إلى هذه المقولة لا دولياً ولا إقليمياً .

٤ - الجهود الدبلوماسية العربية عامة والمصرية خاصة والتي تبذل لإدخال إسرائيل إلى نظام منع الانتشار النووى، هى جهود قوية وبناءة وينبغى أن تستمر حتى وإن كانت لا تلقى حتى الآن أى صدى إيجابى من قبل الغرب ومؤسساته . ولكن على الجانب الآخر فإن بناء رادع عربى على الأقل فوق تقليدى إن لم يكن نووياً هو أمر ضرورى لسد الفجوة الموجودة حالياً فى الرادع النووى، ولردع إسرائيل - ولو جزئياً - عن اللجوء إلى هذا السلاح .

٥ - وعلى المستوى السلمى للطاقة النووية فإن امتلاك الدول العربية عامة ومصر خاصة لبرامج نووية سلمية هو فى حد ذاته - وكما ذكرت الدراسة - شرط ضرورى مسبق لتحقيق الفعالية العسكرية فى مواجهة إسرائيل، حيث إنه يمثل أساس بناء قوة الدولة المعاصرة .

فالقدره النووية السلمية هي رمز لتتائج عملية حضارية تراكمية متعددة الأبعاد، ولم يعد الأمر يسمح لنا بترف التفكير في الدخول إليه من عدمه، لقد أصبح أمراً مفروضاً علينا إذا ما أردنا الحياة للأجيال المقبلة لقد أصبحت بمثابة معركة حضارة وحياة إما أن نكون أو لا نكون .

٦ - لقد أدركت إيران هذا الأمر ووعته جيداً وبدأت فيه ويبدو جلياً أنها لن تتراجع أمام كل التحديات التي تواجهها . ولكن إيران - وكما أشارت الدراسة - تتسلح بعدد من مقومات القوة على المستويات المختلفة الداخلية (رأى عام متماسك وإجماع وطني وديمقراطية بناءة - وقوة اقتصادية وتكنولوجية وعسكرية ضخمة لا يستهان بها) والإقليمية (احتياج الولايات المتحدة لها من ناحية لانتشالها من المستنقع العراقي، ولإعادة ترتيب الأوضاع في منطقة آسيا الوسطى من ناحية أخرى، ولضبط سلوك حزب الله وحماس من ناحية ثالثة) والدولية (القدره الإيرانية على اللعب على التناقضات في المصالح بين القوى المختلفة، والدعم الروسي الصيني القوى للموقف الإيراني ناهيك عن ورقة النفط الإيراني).

أضف إلى ذلك أن فشل الجيش الإسرائيلي في القضاء على حزب الله في الحرب الإسرائيلية اللبنانية الأخيرة قد أكسب إيران ورقة رادعة هامة تواجه بها التهديدات الأمريكية .

كذلك أيضاً حرص الدول الإقليمية وفي مقدمتها مصر والسعودية وتركيا على تجنب الحل العسكري وإنما يمنح إيران قوة إضافية، فهذه الدول وإن كانت لا ترغب أن ترى إيران دولة ذات قدرات نووية عسكرية، وتؤكد ضرورة جعل منطقة الشرق الأوسط خالية من الأسلحة النووية ووقف أي محاولة للسباق النووي في المنطقة، فإنها أيضاً، ومن ناحية أخرى تؤكد حق الدول في امتلاك برنامج نووي سلمي وفقاً لما تنص عليه اتفاقية منع الانتشار، ومن ثم تؤكد أهمية الحل الدبلوماسي؛ لأنها تدرك أنها ستكون أول من يدفع ثمن الحل العسكري .

إن جميع هذه العوامل جعلت إيران قادرة على إدارة «أزمة الملف النووي» بدبلوماسية أقل ما توصف به هو «الحرفية المستندة إلى القوة» وفي ضوء ذلك فإذا كان هناك عدة سيناريوهات تطرح للخروج من أزمة الملف النووي الإيراني وتتراوح ما بين اللجوء المنفرد الأمريكي أو الإسرائيلي للأداة العسكرية، وخارج إطار التحالف الدولي، إلى الاحتفاظ بالوحدة الشكلية للتحالف الدولي والعودة إلى المفاوضات الممتدة والمطولة، مروراً بتسوية غير مكتملة تؤجل المشكلة ولا تحلها، ووصولاً إلى قرار ضعيف وغير مؤثر بفرض عقوبات محدودة على إيران، فإن يصعب تصور سيادة السيناريو الأول في ضوء المعطيات الإقليمية والدولية السائدة، ويبقى أن خيار العودة لطاولة المفاوضات أو الوصول إلى قرار ضعيف بفرض عقوبات محدودة وغير مؤثرة في مجلس الأمن حفظاً لماء وجه الولايات المتحدة الأمريكية

سيكون هو السيناريو الأرجح . وعلى الرغم من ذلك فإن إيران تحرص دائما على التلويح برود فعل عنيفة في حال فرض عقوبات عليها من جانب مجلس الأمن .

٧- وإذا ما حاولنا مقارنة الموقف الإيراني بالموقف المصري لنرى إمكانات تفعيل وإحياء برنامج نووى مصرى حقيقى فى ظل الدعوة التى أطلقها الحزب الوطنى على لسان السيد جمال مبارك رئيس لجنة السياسات بالحزب ، فإنه يمكن أن نكتشف بسهولة ضآلة تلك الإمكانيات ، ومن ثم ضآلة احتمال إحياء فعلى للبرنامج النووى يستهدف المصلحة القومية المصرية ويمكن تلخيص عناصر المقارنة فى الآتى :

● فى حين أن هناك قراراً إستراتيجياً إيرانياً مستمراً بشأن تطوير البرنامج النووى والوصول إلى دورة الوقود الكاملة وإنتاج اليورانيوم المخضب ، فإنه فى المقابل لا يوجد مثل هذا القرار الإستراتيجى بالنسبة لمصر ، فقد صادف هذا البرنامج الإخفاق عدة مرات وكان السبب وراء ذلك غياب مثل هذا القرار الإستراتيجى المستمر .

● فى حين يتوفر الإجماع الداخلى بشأن البرنامج النووى الإيرانى فإن هناك افتقاراً لمثل هذا الإجماع على مستوى الشعب المصرى الذى ينقسم بين مؤيد ومناد بأهمية هذا البرنامج وأولويته ، ومعارض له استناداً إلى أسس مختلفة : أمنية واقتصادية وبيئية . . . إلخ .

● فى حين أن البرنامج النووى الإيرانى تدعمه قدرة مالية فائقة بفضل فوائض البترول ، فإن الافتقار إلى مثل هذه القدرة المالية إنما يعرض أى محاولة فعلية لإحياء البرنامج المصرى لتحديات عديدة ويجعله خاضعاً لجهات التمويل الخارجية وواقعا تحت التهديد بالتوقف فى أى لحظة قد تتعارض فيها السياسات المصرية مع سياسات تفضلها تلك الجهات .

● فى حين توجد قوى دولية تدعم البرنامج النووى الإيرانى بقوة وفى مقدمتها روسيا والصين ، فإن مصر تفتقر إلى مثل هذا الدعم ، والواقع أن الموافقة الأمريكية على استئناف مصر للبرنامج النووى - كما سبق أن ذكرت الدراسة - له العديد من المبررات باستثناء الرغبة الأمريكية الحقيقية فى أن ترى مصر قوة نووية فى مواجهة إسرائيل حتى ولو كانت فى إطار سلمى .

● فى حين تمتلك إيران القاعدة التكنولوجية والصناعية والفنية المتقدمة اللازمة للإبقاء على تطوير برنامجها النووى فإن مصر تفتقر إلى مثل هذه القاعدة وهو الأمر الذى يجعلها فى النهاية أيضاً تخضع لقوى خارجية سبق وأن سحبت دعمها الفنى والتكنولوجى (والمالى أيضاً) لمثل هذا البرنامج .

وإذا كان ذلك مردوداً عليه بأن إيران قد استعانت بخبرات أجنبية فى فترات سابقة وأن مصر بالمقابل يمكنها أن تفعل الشئ نفسه خاصة وأنها تمتلك من الخبرات والكفاءات البشرية

ما يمكن أن يدعم برنامجها، فإنه يمكن القول إن إيران قد استطاعت استغلال فرص كانت سانحة في فترات سابقة في وقت عجزت فيه مصر عن ذلك، وربما أن تلك الفرص لم تعد سانحة بمثل ما كانت من قبل أمام مصر، ولكن تظل الكفاءات والخبرات البشرية المصرية عاملا هاما في هذا المجال، وإن كان عاملا منقوصا.

● تملك إيران العديد من الأوراق الضاغطة وعناصر الردع في مواجهة القوى الخارجية المعارضة لبرنامجها النووي، وهو الأمر الذي تفتقر إليه مصر إلى حد بعيد، بل على العكس فإن عليها الكثير من القيود التي ربما تمنعها من العمل قدما في طريق تطوير القدرات النووية السلمية، وهي في المقابل لا تملك إستراتيجية واضحة تؤمن إمكانية مواجهة تلك القيود.

ولكن على الرغم من أن هذه المقارنة ربما لا تكون في صالح البرنامج النووي المصري المأمول فإنها لا تعني أبدا تخلي مصر عن هذا البرنامج، ولكن ما تعنيه هو ضرورة العمل الحقيقي والجاد والمخلص من أجل توفير مختلف الأسس والقواعد التي يمكن أن تبنى عليها برنامجا نوويا مصرية، حتى لا يكون الأمر مجرد «فرقة سياسية» لأهداف معينة أو مجرد استجابة لرغبة أمريكية تريد توريط مصر في صراعها مع إيران واستخدامها كمجرد أداة للضغط على الدول الأعضاء في مجلس الأمن من أجل استصدار قرار ضد إيران قبل أن تتحول المنطقة إلى حلبة للصراع والتنافس النووي.

إذن فهذه المقارنة ليس المقصود بها على الإطلاق القول باستحالة تطوير برنامج نووى مصرى، لأنه وكما ذكرت من قبل أصبح مسألة حياة وليس المقصود أيضا الدعوة للاعتماد على الخارج كلية في صورة استيراد مفاعلات «تسليم مفتاح»، وإنما المقصود به أن تعمل مصر ومن الآن من أجل أن يكون هناك قرار إستراتيجى مستمر لتطوير البرنامج النووى يستند إلى أسس حقيقية قابلة للحياة والبقاء ولا يخضع لحسابات ومصالح القوى الخارجية التي يمكن أن توقفه في أى لحظة كما حدث من قبل، فالمطلوب العمل من الآن على كافة الأصعدة الاقتصادية والتكنولوجية والدبلوماسية والاجتماعية، من أجل توفير تلك الأسس الحقيقية التي يمكن أن يقوم عليها برنامج نووى مصرى قوى ومستمر.